رسالة الإسلام خالدة

للأستاذ محمد فريد وجدي

وقر فى عقول أهل العلم الغربيين، وعقول من نهل من حياضهم من الشرقيين ، أن الأديان التى احتضنت الجماعات البشرية منـــذ نشوئها إلى عهـد قريب قد انتهى دورها ، وانقضت رسالاتها ، لعدم وجود نفع يرجى للجماعات الراهنة منها. وكثيراً ما أسأل: هل رسالة الإســلام لا تزال قائمة ؟ فأجيب : نعم ، وأبد الدهر . ولست فى تأكيدى هذا بواقع تحت سلطان العقائد الوراثية ، ولا بمخدوع بالأوهام التقليدية ، ولكنى مستند فيه إلى علم ، وماض فيه على بينة

ذلك أن كل مجموعة من التعاليم يحكم عليها بانقضاء دورها ، حين تستنفد الحياة كل ما فيها من غذاء يناسبها ، أو تتطور العقول وتظل هى جامدة لا تماشيها ، فترتفع عن الأخذ بها ؛ ولكن تعاليم الإسلام لا تجرى عليها هذه السنة ، فقد جاءت بالمثل العليا فى كل ناحية من نواحى الحركة الروحية والعقلية والاجتماعية ، فكيف يعقل أن تنتهى له رسالة ، أو تزول له دولة ؟

فأما من ناحية الحركة الروحية فإن الإسلام يصرح بأنه دين الفطرة الإنسانية ، وهذه الكلمة أسمى ما يعبر به عن دين يخلد خلود البشرية . فإن الفطرة مودع فيها شريعة النوع كله بالقوة ، وهى واحدة فى جميع الأفراد لا تتعدد إن لم تفسد بدس تعاليم خارجية إلى النفس تحولها عن سمتها الطبيعى . وقد شدد الإسلام فى النهى عن إفسادها بالتعاليم الضارة بها فى كل مناسبة ؛ وقد زاد فحاطها بحوافظ قوية من ضروب مختلفة ، فنبه النفوس أولاً إلى ضرر التقليد الأعمى للآباء والقادة ، وأمر بطلب الدليل المقنع على كل عقيدة يتقدم بها داع لنحلة ، وصرح بأن الإيمان التقليدى لا يقبل ، وأن الإنسان مسئول عن عمله الشخصى ، وأن أحداً لا يغنى عنه شيئاً ، وأن أكثر من فى الأرض لا يتبعون إلا الظنون والخزعبلات الموروثة ، وأن الدين يهتدى إليه الإنسان على ضوء العقل الناضج والعلم المحص ، وأن الإنسان يترقى فى معارج الهداية بقدر ما يخلص فى طلب الحق ، ويتجرد من الأهواء والأوهام ، ويثابر على النظر والفكر ، ويستمع لكل كلام فيتبع أحسنه ، ولا يأنف أن يأخذ بحقيقة يأتيه بها من يخالفه فى دينه ولغته ، وألا يصر على قول إذا ظهر له وجه الصواب فى تركه ، وألا يتعصب لمذهب أو رأى تعصباً يعميه عن نظر ما عسى أن يكون فيه من الثلم أو يرد عليه من الاعتراضات ، وأن يكون دائماً حريصاً على استقلاله العقلى وحريته الفكرية ، مستعداً لأن يصحح ما يتضح له أنه مخطئ فيه ، معتقداً أن ليس بعد الحق إلا الضلال .

وبناء على هذه الكليات يرى الإسلام أن الناس ماداموا كلهم متشابهين فى الخلقة ، ومتساوين فى الميول والعواطف ، فلا يصح أن تكون لهم أديان متعددة لم يفرق بينها إلا أهواء القادة وأوهام الزعماء ، فإنما هو دين واحد ، دين الفطرة المؤيد بالعقل والنظر ، المنزه عن الظنون والوساوس ، الجامع لكل ما حصلته الإنسانية فى أدوار حياتها من مذخورات أدبية ، وفتوحات روحية ، فقال تعالى : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق ، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » وقال : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء »

وأما من ناحية الحركة العقلية فإن الإسلام قد رفع من شأن العقل ونوه بسلطانه ، إلى حد أنه اعتبر الذين لا يقيمون له وزناً فى تقدير قيمة عقائدهم دواباً تحقيراً لهم ، فقال تعالى : « إن شر

الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » . وعد الذين لا يستخدمون حواسهم الظاهرة فى النظر والتأمل ، ومشاعرهم الباطنة فى الاستدلال والتعقل ، أنعاماً بل أضل . قال الله تعالى : « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون »

وشفع الإسلام كل هذا بالتحضيض على طلب العلم والتحريض على تصيد المعرفة من كل المظان التى يتخيلها العقل ، من النظر فى الكون والتأمل فى الكائنات ، والتنقيب عن مساتير الخليقة والسريان فى سرائر الوجود ، فى السماء وأجرامها ، فى الأرض وعوالمها ، فى الحيوانات وعجائبها ، فى النباتات وبدائعها ، كل ذلك لبناء الشخصية الإنسانية وإبلاغها إلى ذروة الكمال المقدر لها . ولقد رفع من شأن العلم فى نظر الإنسان إلى حد أنه حصر فهم آيات الله وإدراك مراميها ، وفهم مغازيها فى أهل العلم ، فقال تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وقال : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » وقال : « إن فى ذلك لآيات للعالين » بكسر اللام فيهما . ولا يمكن أن يتخيل أحد أن يتجاوز التنويه بشرف العلم هذا الحد

هذا ولم يغفل الإسلام فى تطلب ترقية الشخصية الإنسانية شيئاً، حتى الضرب فى الأرض، وتعرف أحوال الأمم وطبائعها ، ودراسة ما هى عليه من شرائعها وعاداتها ، وناهيك بأثر ذلك فى ترقية النفسية البشرية ، فقال تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها. أو آذان يسمعون بها، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » . وقد كرر الحض على السياحة مراراً كثيرة

وأما من ناحية الحركة الاجتماعية فإن الإسلام قد بلغ بها الأفق الأعلى ، وأوجد فى رابطة الاجتماع تجديداً لم تحلم به الإنسانية بعد ، ولا مناص فى أنها ستعول عليه فى المستقبل ، فقد جعلها الاسلام مؤلفة من الأصول الأدبية، والقواعد الخلقية، لا كما كانت قائمة عليه من الحاجات الجسدية ، والمقومات القومية . فعمل الإسلام ذلك لتشمل تلك الرابطة النوع البشرى كافة ، وتلاشى فى طريقها الفروق الجاهلية القائمة على الجنسية ، والخلافات اللغوية واللونية التى كانت ولا تزال عوامل شقاء فى بنية الإنسانية ، بما تثيره من الحروب والغارات بينها ، وما تمحق من روح التكافل والتعاون فيها . فالإسلام لا يعترف بفرق بين عربى وعجمى وصينى وتركى ، وحاوى وفرنسى الخ ، فالناس كافة فى نظره أولاد آدم وحواء ، وقد خلقوا ليتعارفوا ويتعاونوا ، لا ليتناكروا ويتماحروا ، فقال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير »

فالإسلام يقرر أنه مادام النوع البشرى واحداً ، فيجب أن يكون له دين واحد وغرض فى الحياة واحد . وأنت ترى أن العالم كله رغماً عن طغيان العاطفة القومية فى هذا العصر ، وازدياد عوامل الفرقة والخلاف بين الشعوب ، سيضطر إلى التوحد ، وستكون هذه الموجة نفسها من الخلاف والتفرق من أكبر العوامل فى إيجاد تلك الوحدة المرجوة ، لأنها ستثبت بدليل محسوس أن هذه الوحدة هى العامل الوحيد لنجاة المدنية من التلاشى .

إذا اعتبرت كل ما ذكرته هنا رأيت بما لا يدع شكاً أن رسالة الإسلام لا تزال باقية ، وأنها ستبقى ما بقى النوع الإنسانى على الأرض . وإنما تزول التعاليم إذا كانت مقدرة على أحوال معينة ، متى ارتقت أصبحت تلك التعاليم لا تسد حاجة المجتمع فتزول ، أو يثبت فسادها بترقى العقول . فتتلاشى مع كل ما يتلاشى من أمثالها

ولكن ما بيناه من تعاليم الإسلام هنا لا يعقل أن يزول ، لأنها أصول أدبية خالدة ، ومثل عليا لا يمكن التمارى فى سموها ، وفى تأدى العالم فى المستقبل إلى محاولة تحقيقها .

محمد فريد وجدى